

المحاضرة الثامنة

السنة الرابعة

قسم علم الاجتماع

مقرر: علم الاجتماع السياسي

د. عدنان مسلم

النخبة السياسية (الصفوة)

Political Elite

مفهوم الصفوة :

الصفوة أو النخبة ، من المواضيع المهمة التي أهتم بها علماء الاجتماع السياسي بالدراسة والتحليل ، ومرد ذلك إلى الأهمية التي يكتسبها مفهوم الصفوة عندما يتم تناول المواضيع الأساسية في إطار مجالات علم الاجتماع السياسي ، وخاصة مفهوم القوة الذي يعد موضوعاً محورياً لهذا العلم ، في حين أن موضوع الصفوة أيضاً يقترب في أحيان كثيرة ويتداخل مع دراسة الطبقات الاجتماعية ، لذلك فإن الكتابات الاجتماعية والسياسية المعاصرة أولت عناية كبيرة لهذا المفهوم ، حيث أن تحليله يعني تحليل جانب مهم من النظام السياسي الاجتماعي ، وبصفة أساسية فإنه يساعد على تحليل بناء وتوزيع القوة في المجتمع ، وبالتالي تشكل الجماعات التي تكون الفئة الحاكمة ، ومعرفة سلوكها السياسي ، وقد أكد (جبريل تارد) على أن النظام السياسي لأي مجتمع مرتبط بالأبنية الاجتماعية .

إن التركيز الحديث نسبياً على استخدام مفهوم الصفوة ، لا يعني بأن مضامينه لم ترد في الفكر الاجتماعي والسياسي القديم ، بل تشير أدبيات ذلك الفكر بأن معناه قد تردد منذ زمن بعيد ، حين توجه الاهتمام إلى دراسة طبيعة المجتمع الإنساني ، والعلاقة القائمة بين الجماعة الحاكمة التي تملك السلطة ، وبين الجماهير المحكومة ، وهل أن النظام السياسي القائم يعبر عن إرادة تلك الجماهير ، فضلاً عن معنى المساواة السياسية وعلاقتها بالبناء الطبقي .

فمنذ ظهور الفكر الاجتماعي والسياسي اليوناني القديم ، نجد أن إفلاطون قد أهتم بهذه المسائل ، وكذلك فعل تلميذه أرسطو ، ورغم إن مصطلح نخبة بشكله الحالي لم يتم تناوله إلا في عصور متأخرة ، إلا أنه كمفهوم يشير إلى امتلاك القوة واستخدامها بالشكل الذي يمكن فيه تقسيم المجتمع إلى طبقات تكون إحداها تشغل رأس الهرم الاجتماعي والسياسي ، وذلك ما فعله إفلاطون عندما قسم المجتمع بشكل صارم إلى ثلاث طبقات ، وهي طبقة الحكام ، وطبقة الجند ، وطبقة العامة ، وأشار إلى أن طبقة الحكام يجب أن تتكون من الفلاسفة والحكام الذين تتوافر فيهم أسمى النزعات وهي نزعة العقل والحكمة ،

وقد توالى استخدامات مفهوم النخبة بعد ذلك على يد ماركس ، ومن ثم كان أبرز روادها كل من باريتو وموسكا وميشيلز ، وصولاً إلى رايت ميلز ، وداهل .

تعريف الصفوة :

- يشير معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية إلى أن الصفوة ، والتي يطلق عليها أحياناً عليّة القوم أو الأعيان ، بأنها أقلية ذات نفوذ تسود جماعة أكبر حجماً ، وأن الانتساب إلى الصفوة يتم اكتسابه بالوراثة في بعض المجتمعات ، حيث أن الأفراد المنحدرين من أسلاف تنتسب إلى بعض الطوائف أو بعض أصحاب الامتيازات ، يتمتعون بنفس المركز بمقتضى حق الميلاد ، في حين أنه في المجتمعات التي تسودها المنافسة الحرة ، نلاحظ حركات صعود الأفراد الذين يتمكنون من الارتقاء إلى مراكز ينظر إليها باعتبارها مرتفعة ، وينجح بذلك هؤلاء الأفراد في الانضمام إلى الصفوة التي يعترف بها المجتمع أو جانب منه .

- كما تعرف الصفوة بأنها فئة قليلة داخل المجتمع ، لها مكانتها الاجتماعية العالية ، وتؤثر على أو تحكم بعض أو كل شرائح المجتمع الأخرى⁽¹⁾.

- والصفوة مصطلح يشير معناه العام إلى جماعة من الأفراد يشغلون مراكز النفوذ والسيطرة في مجتمع معين ، وتمثل الصفوة أكثر الطبقات هيبة وأثراً ، كما يشير المصطلح إلى الفئة العليا في أحد ميادين التنافس ، حيث أن الصفوة تضم البارزين والمتفوقين بالقياس إلى غيرهم ، ما يجعلهم قادة في ميدان معين ، بذلك يمكن أن نشير إلى صفوة سياسية ، و صفوة في العمل ، و صفوة في الفن أو الرياضة ، و صفوة علمية ، و صفوة اقتصادية ، إلى غير ذلك من الميادين .

- أما (توم بوتومور) فيرى أن الصفوة عبارة عن جماعات وظيفية ومهنية بصورة أساسية ، تتمتع بمكانة اجتماعية عالية في المجتمع .

(1) د. عبد الهادي الجوهري ، معجم علم الاجتماع ، المكتب الجامعي الحديث ، 98-1999 ، ص 131.

ويُعرّف "روبرت داهل" الصفوة الحاكمة بأنها جماعة تحكم ، لكنها تقل عن الأغلبية فيما يتعلق بالحجم ، فهي تضم قلة من الأفراد تسود خياراتهم ما سواهم في حالات الاختلاف حول التفضيلات المتعلقة بالمسائل السياسية الحيوية .
لمحة تاريخية :

لم يستخدم مصطلح النخبة إلا في القرن السابع عشر ، وكان استخدامه لوصف سلع ذات تفوق معين ، ثم توسع استخدامه فيما بعد ليشمل الإشارة إلى فئات اجتماعية متفوقة ، كالوحدات العسكرية الخاصة ، أو الطبقات العليا من النبلاء ، و يذهب "بوتومور" إلى أن أول استعمال معروف لكلمة النخبة في اللغة الإنجليزية يرجع إلى سنة 1823 ، حيث كانت تطلق على فئات اجتماعية معينة ، غير أن هذا المصطلح لم يستخدم بشكل واسع في الكتابات السياسية والاجتماعية في أوروبا حتى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر ، ولم يشتهر في بريطانيا وأمريكا إلا في أوائل القرن العشرين ، خاصة عندما أنتشر عبر نظريات النخبة ، وبشكل أساسي عبر كتابات "باريتو" سنة 1930⁽¹⁾ ، وقد أستخدم مصطلح الصفوة السياسية كأحد المناهج الشهيرة في التحليل السياسي والاجتماعي منذ القرن التاسع عشر ، خصوصاً في الدراسات المتعلقة بتحديد دور الأجهزة البيروقراطية في عملية اتخاذ القرارات السياسية ذات الطبيعة السيادية .

التوجهات النظرية في موضوع الصفوة عند بعض العلماء :

• فلفيدو باريتو : *V.Pareto* (1848 – 1923)

تعد الأفكار التي قدمها عالم الاجتماع الإيطالي "باريتو" ، من أهم التوجهات النظرية التي جاء بها العلماء حول ظاهرة الصفوة ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية سياسية تؤثر بشكل كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية لأفراد المجتمع ، وقد تناول باريتو في إطار نظريته عن التوازن الاجتماعي ، قضايا المجتمع أو النسق الاجتماعي ودراسة الظواهر الاجتماعية ، في حين أنه ركز من خلال مدخله النقدي التحليلي المقارن على اللاتجانس

(1) ت.ب . بوتومور ، النخبة والمجتمع ، ترجمة جورج جحا ، بيروت ، الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1988 ، ص 5 .

الاجتماعي ، أو التمايز الاجتماعي ، وبعد ذلك من أهم الأفكار التي طرحها عند مناقشته لقضية التطور والتغير الاجتماعي ، لقد أكد باريتو على وجود الطبقات في المجتمع ، بل وجعل ذلك أمراً محتوماً ، وفي مقابل ذلك فإنه يشير إلى ضعف في الآراء والنظريات التي تدعو إلى الديمقراطية والمساواة والحرية ، على أساس أنها بعيدة عن الواقع ، حيث أن اللامساواة ، وعدم وجود حرية و ديمقراطية تامة ، أمراً طبيعياً يعكسه الحقائق الواقعة التي أكدها من خلال تحليلاته السيكولوجية ، أو اهتماماته الاقتصادية ، وتصوراتها السياسية ، وذلك عندما ناقش دورة الصفوة وعلاقتها بعملية التغير الاجتماعي .

فقد تناول "باريتو" نظرية الصفوة في كتابه (مقدمة عامة في علم الاجتماع) الذي نشر سنة 1916 ، وترجم إلى اللغة الإنجليزية عام 1935 تحت اسم (العقل والمجتمع) *The Mind and Society* ، وقد كانت له تصورات عن الصفوة ومستوياتها في مؤلفاته (محاضرات في الاقتصاد السياسي) ، و (النظم الاشتراكية) ، تختلف عن التصور الذي قدمه فيما بعد في (العقل والمجتمع) ، والذي يهتم فيه بالتعارض القائم بين أولئك الذين يسيطرون على السلطة وهم (الصفوة الحاكمة) ، وأولئك الذين لا يمتلكون شيئاً ، أي جماهير الشعب ، وقد أطلق باريتو على تلك الصفوة الحاكمة اسم (الطبقة الحاكمة) وذلك تمييزاً لها عن الصفوة غير الحاكمة ، وقد اتفق مع "موسكا" على أن الصفوة تمثل أقلية بالنسبة للمجتمع ، وهذه الأقلية من الأفراد تمتلك من الثروة والقدرة والمواهب ما يجعلها تختلف وتتميز عن الآخرين الذين هم خارج صفوفها.

لقد توصل "باريتو" إلى صياغة نظريته عن دورة الصفوة *Circulation of Elites* من خلال دراسته المستفيضة للتغير الاجتماعي الناتج عن الفئتين الأوليتين للرواسب ، وهما: راسب غريزة التكامل ، والذي يعني القدرة على الربط بين الأشياء ، وراسب استمرار التجمعات ودوامها ، الذي يشير إلى الاتجاه المحافظ ، وقد شكلت هذه النظرية لديه إحدى القضايا النظرية الرئيسة في علم الاجتماع ، وهي أيضاً من القضايا الرئيسة المهمة التي تدخل في إطار مجالات علم الاجتماع السياسي ، ويذهب باريتو إلى أن الصفوة تتألف من الأفراد الذين يتميزون بقدرة عالية على الأداء في مجال تخصصهم ، وأن هناك فئتان

أساسيتان من الصفوة هما ، الصفوة الحاكمة ، وتضم الأفرادالذين يؤدون دوراً بارزاً في ممارسة السلطة السياسية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ثم الصفوة غير الحاكمة التي تتألف من أفراد لديهم القدرة ، إلا أنهم ليسوا في مراكز قوة تمكنهم من ممارسة السلطة السياسية ، وفي إطار مدى سيطرة الرواسب على الفئتين الأولى والثانية ، فإنه يمكن تمييز نوعين من الأفراد ، الأول يمثل المفكرين والثاني يمثل المحافظين ، فعندما تكون الصفوة الحاكمة من النوع الأول ، فإن المجتمع يتغير بشكل سريع نسبياً ، أما إذا كانت الصفوة من النوع الثاني فإن التغير يكون بطيئاً .

ويضع باريتو أمامنا نظرية دورية للتغير الاجتماعي ، ضمن تحليله لدورة الصفوة، حيث يذهب إلى أنه يوجد لدى الصفوة ميل طبيعي نحو التناوب بين النوعين السابقين في شغل مراكز القوة السياسية ، فحينما لا تشغل إحدى هاتين الطبقتين مركز الحكم ، تتجلى دائماً سمات تفوقها ، بينما على العكس من ذلك ، تتضح باستمرار جوانب النقص في الطبقات الحاكمة ، ففي حين تكون مثلاً طبقة المفكرين في الحكم وترتكب أخطاء واضحة ، فإن ذلك يؤدي إلى ضرورة استبدالها بطبقة المحافظين ، وعندما تصل هذه الأخيرة إلى مركز الحكم والسلطة ، فإنها تكشف عن جوانب الضعف فيها وتكون هناك ضرورة لاستبدالها بطبقة المفكرين⁽¹⁾ ، وبغض النظر عن دقة وصدق هذه الأفكار ، فإن هذا التحليل لباريتو قد ترك أثراً كبيراً على علماء الاجتماع ، وخاصة المهتمين منهم بدراسة طبيعة الطبقات الحاكمة ووظائفها ، وبدراسة القوة ومصادرها وكيفية توزيعها ، وخاصة في العصر الحالي الذي تمثل فيه مشكلة أداة الحكم وكيفية ممارسة السلطة ، وموضوع الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، أهم المواضيع التي يهتم بها علماء الاجتماع والسياسة والقانون والاقتصاد وغيرهم .

إن فإن باريتو ينطلق في الأساس ، عند تفسيره للصفوة ، من فكرة التمايز ، أي عدم المساواة في قدرات الأفراد ، حيث يجعل من تلك الفكرة مبدءاً ثابتاً لتوصيف حالة انقسام المجتمع ، التي ينظر إليها كمسألة حتمية لا مناص منها ، ويذهب إلى أنه يمكن التمييز

(1) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مصدر سابق ، ص 247.

بين فئة من الناس وأخرى ، فيما يتعلق بإمكاناتها ونشاطاتها ، بجملة من المؤشرات المتعلقة بالقدرات الجسمانية والعقلية ، مثل المهارات ، الذكاء ...، بما يفسح المجال أمام جماعة ما تمثل أقلية ، لاحتلال مكانة اجتماعية عالية .

وبشير "بوتومور" إلى أن باريتو قد حدد النخبة أو الصفوة بطريقتين مختلفتين ، فابتدأ بتحديد عام جداً قائلاً : (لنفترض أن كل فرد ، في كل فرع من فروع النشاط الإنساني ، أعطى دليلاً يشكل مقياساً لقدرته ، بطريقة مشابهة لاستعمال الدرجات في المدارس ، في الامتحانات المتعلقة بالمواد الدراسية المختلفة ، فيعطى أفضل نوع من المحاميين مثلاً درجة (10) ، بينما يعطى نوع آخر ، وهو ذاك الذي لم يستطع أن يجد له زبونا ، درجة (1) وتترك درجة الصفر لمن هو بالفعل غبي أو أبله ، ويعطى الرجل الذي استطاع أن يجمع الملايين - بطريقة شريفة أو غير شريفة - درجة (10) ، بينما يحصل ذاك الذي جمع الآلاف درجة (6) ، والذي أستطاع بجهد أن يبقى خارج مأوى العجزة والفقراء درجة (1) ، والذين ينتهون إلى هذا المأوى الدرجة صفر ، ... وهكذا في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني .

فلنقم الآن طبقة من هؤلاء الذين ينالون أعلى الدرجات كل في مجال نشاطه ، ولنطلق على هذه الطبقة اسم النخبة أو الصفوة⁽¹⁾ .

وبذلك فإن باريتو قسم المجتمع إلى طبقتين ، الطبقة العليا (الصفوة) ، والتي بدورها تنقسم إلى قسمين وهما : الصفوة الحاكمة ، والصفوة غير الحاكمة ، والطبقة الثانية من المجتمع هي الطبقة السفلى أو اللاصفوة .

إن نظرية (واسب والمُشتقات) لعالم الاجتماع الإيطالي " فلفيدو باريتو " ، التي جاءت ضمن دورة الصفوة في إطار النظام الاجتماعي ، شكّلت بداية الجدل مع عصر التنوير ومنجزاته وأفكاره ، تلك التي سيطرت على المرحلة التاريخية التي انتهت بقيام الثورة

(1) ت.ب. بوتومور ، النخبة والمجتمع ، مصدر سابق ، ص 6 .

الفرنسية 1789، ونشأة النظرية السوسيولوجية أي قيام التفكير العلمي المُنظم بشأن المجتمع⁽¹⁾.

وإذا كانت الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية قد شكّلت التجسيد الفكري والعلمي لمبادئ التنوير، فإن النسق النظري لباريتو يقف بعيداً عن هذه الأنساق، ويميل إلى قيادة برهنة مخالفة أو مضادة، وإذا كانت الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية - ماركس، دوركايم، فيبر - قد استمرت مستندة إلى مبادئ التنوير، تحاول التفاعل من خلالها مع الواقع، فإن القضايا النظرية التي قدمها باريتو كانت رفضاً لقضايا هذه الأنساق النظرية، واستكمالاً لذلك تشكيكاً في بعض مبادئ التنوير الفاعلة من خلال العلم الاجتماعي⁽²⁾.

لقد استلهم فكر التنوير نموذج العلم الطبيعي المتطور خلال تلك الفترة، في إدراك الظواهر الاجتماعية باعتبارها جزءاً من ظواهر الكون، بالنظر إلى مقولة السبب والنتيجة وهي المقولة التي تحاول إدراك الأسباب المُنخلفة للواقعة الاجتماعية، أو العوامل المؤثرة فيها من خارجها، كما يحدث في نطاق الظواهر الطبيعية، إننا نجد باريتو يرى أن العامل الأساس المحدد لكل الظواهر الاجتماعية يكمن في عمق الذات البشرية، راسب فيها، يحدد سلوكيات الإنسان وتبريراته المنطقية لسلوكياته وأفعاله، وقد تكون هذه الرواسب مبادئ ذات طبيعة بيولوجية تدفع الإنسان من داخله، أو هي عواطف تشكل طاقة فاعلة دافعة لسلوكيات الإنسان في الواقع الاجتماعي.

المنهج في علم الاجتماع عند باريتو:

البنية المنهجية للنسق النظري عند باريتو هي نفس البنية عند معاصريه، وذلك باعتبار كونها أساقاً نظرية عايشة الاتجاهات النظرية العامة (المثالية، النفعية، الوضعية، الامبيريقية)، وهي اتجاهات كانت لها مداخلها المنهجية المحددة، ويعتبر

(1) د. علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة، دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع " الأنساق الكلاسيكية"، مصر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، 1991، ص 437.

(2) المصدر نفسه، ص 437.

تبنى المدخل المنهجي الذي اتبعت العلوم الطبيعية والاقتصادية هو المدخل الملائم لدراسة الحقيقة الاجتماعية ، ذلك أن باريتو كان يأمل في خلق علم اجتماعي مكمل أساس لدراسات الاقتصاد السياسي ، ويتخذ من العلوم الطبيعية مثالا له ، لذا فإن باريتو يهدف إلى البحث عن فهم الحقيقة التجريبية عن طريق تطبيق المناهج المتبعة في العلوم الفيزيائية والكيمياء والفلك ... ، في إطار العلوم الاجتماعية.

إذن فإن وجهة نظر باريتو تؤكد أن منهج البحث يجب أن يأخذ الطابع العلمي التجريبي ، وأن الحقيقة الاجتماعية ينبغي أن تكون موضوعاً للاستقراء العلمي ، ويلاحظ عنه ميله الدائم لاستعمال مصطلحات الخبرة أو التجربة ، وهي المصطلحات التي تشير بوضوح إلى استقلال العواطف الذاتية للملاحظة وإمكانية التحقق منها ، وفي هذا الجانب فإن باريتو يدعو إلى ضرورة تعريف المفاهيم الأساسية تعريفاً دقيقاً عند دراسة علم الاجتماع.

1- الرواسب : *Residues*

يرى باريتو أن (الرواسب) كقوى دافعة للاستقرار والتغير هي المتغيرات الأساسية التي تتحكم في التفاعل الاجتماعي ، طالما ثمة مشكلة للنظام الاجتماعي ، ومثلما ذهب "كارل ماركس" إلى التأكيد على وسائل الإنتاج أو البناء التحتي باعتباره المتغير الحاكم للتفاعل الاجتماعي ، أو مثلما ذهب "فيبر" إلى تأكيد القيم البروتستنتية باعتبارها المبدأ الذي يستند إليه قيام النظام الاجتماعي ، أو حسبما يذهب "دوركايم" إلى القول بأن تقسيم العمل الاجتماعي هو مصدر مشكلة النظام الاجتماعي وهو طريق حلها أيضاً ، فإننا نجد أن باريتو يرى أن الرواسب هي المبادئ الأساسية أو المتغيرات الحاكمة للتفاعل في إطار النظام الاجتماعي.

وهناك من يؤكد أن الرواسب تجليات للعواطف أو لها ارتباط بها ، ويعتقد البعض بأن الرواسب تتصل بالغرائز لدى الإنسان ، ويحاول "بيترم سروكن" تقديم شرح لطبيعة هذه الرواسب ، فيؤكد إن الأفعال الإنسانية عادة ما تعتمد على طبيعة دوافعها ، ومن بين هذه الدوافع مالها أهميتها الخاصة ، وهي الدوافع التي تتميز بالدوام النسبي ، هذه الدوافع

هي (الرواسب)، والرواسب عند باريتو ليست غرائز وليست عواطف أيضاً ، بل أنها نوع من الدوافع الدائمة نسبياً ، وتلك التي توجد بين أعضاء المجتمع ...إن الرواسب تُعد تجليات للعواطف *Sentiments* باعتبارها القوى التي تحدد طبيعة التوازن الاجتماعي ، ذلك يعني أن الرواسب هي مجموعة من المبادئ العامة ذات الأساس البيولوجي داخل الكائن الإنساني ، لكنها تتجلى في شكل سلوكيات اجتماعية محددة ، تصنع في مجموعها الوجود الإنساني والاجتماعي ردمته⁽¹⁾.

ويرى باريتو أن الرواسب تنقسم إلى ست فئات وهي:

- 1- رواسب الترابط *Residues of Combination*
- 2- رواسب استمرار التجمعات *Residues of Persistence of aggregates*
- 3- رواسب إظهار العواطف من خلال الأفعال الخارجية
Residues Manifestation of Sentiments through external acts
- 4- رواسب الألفة *Residues of Sociality*
- 5- رواسب التكامل الفردي *Residues of Individual integrity*
- 6- رواسب الجنس *Residues of Sex*

إن هذه الرواسب تنطبق على الأفراد أو الطبقات في المجتمع ، كما على المجتمعات المختلفة ، لذا فإنها تعد القوى الحقيقية الكامنة وراء تأكيد التوازن الاجتماعي ، إلا أن فئات الرواسب الست ، ليست موزعة بالتساوي بين أفراد المجتمع أو بين مختلف الطبقات الاجتماعية أو الجماعات المختلفة ، إذ يوجد الأفراد أو الجماعات التي تمتلك قدراً كبيراً من الرواسب القوية من الفئة الأولى "رواسب الترابط" ، بينما هناك أفراد آخرون أو جماعات لديهم عدد كبير وقوي من رواسب الفئة الثانية "رواسب التجمع" ، ويصدق نفس الأمر بالنسبة لفئات الرواسب الأخرى ، وتوضح أهمية ذلك من خلال أن

(1) مولود زايد الطبيب ، التنشئة السياسية ودورها في تنمية المجتمع ، رسالة ماجستير غير منشورة

الراسب السائد هو الذي يشكل طبيعة الشخصية الإنسانية للفرد أو الجماعة ، فهو يطبعهم بطابع خاص ، ويحدد بقدر كبير السلوك الفردي أو طبيعة التنظيم الاجتماعي للجماعة. وإذا كانت الفئتان الأولى والثانية هما الأهم من بين فئات الرواسب ، وحيث أن الرواسب ليست موزعة بالتساوي كما ذكرنا ، فنلاحظ بروز نموذجين اجتماعيين يميزان شخصيات الأفراد ، فالمنتمون إلى الفئة الأولى يقوى لديهم راسب الترابط ، وهم بذلك يسعون إلى ترابطات جديدة بما يخدم أهدافهم ، سواء كانت مالية كالمشروعات والشركات الكبرى.. ، أو كانت فكرية كالمخترعات أو الابتكارات ...، أو سياسية كتأسيس المنظمات أو الكُتل والتحالفات السياسية...، أو أي نوع من أنواع الترابطات أو الارتباطات التي تؤدي الأغراض الكامنة المختلفة.

أما المنتمون إلى الفئة الثانية فهم محافظون ، إذ يقوى لديهم راسب استمرار التجمع أو الترابط ، ولهذا السبب فهم من الناحية السيكلوجية يمتلكون نموذج المحافظة ، أي المحافظة على ما هو قائم أو إنقاذه إذا تعرّض للخطر تأكيداً لضرورة استمراره. وعلى الرغم من أن الرواسب أو الدوافع الكامنة لا يمكن مشاهدتها ، كما لا يمكن أن يصير ح بها المتصرفون على أساسها ، بل هم بالعكس من ذلك يبذلون الجهد لمواراتها ونفي وجودها ، إلا أن التعرف على تلك الدوافع ليس صعباً ، إذ أنها تظهر بشكل واضح من خلال السلوك العام ، فلا تخفى على المُحلل الاجتماعي الذي يتتبع بالدراسة ظاهرة معينة ، يرصد تحركها في شكل الممارسات التي تحدث في إطار النظام الاجتماعي ، فنحن لا نرى الرياح إلا أننا نعرف وجودها بكل يسر من خلال تأثيراتها على الأشياء المادية .

2- المشتقات : *Derivations*

استناداً إلى ما يذهب إليه باريتو، تُعد المشتقات هي التعبير أو التجلّي الخارجي للرواسب ، ويحاول باريتو أن يحدد المشتقات ، فيؤكد أن البشر يحتاجون في العادة أن يجعلوا سلوكهم غير المنطقي يبدو منطقياً ، ومن ثم فإنهم يقدمون حينئذ تفسيرات منطقية زائفة لأفعالهم⁽¹⁾، أما قوة المشتقات فإنها مستمدة من العواطف الكامنة وليس من

(1) د.علي ليلة، مصدر سابق، ص 523.

الاعتبارات المنطقية التجريبية ، إذ فالـمُشتقات هي التعبير الظاهري عن عواطف كامنة ، لذا فهي سلوك مرئي يشير - بشكل أو بآخر - إلى عواطف تسكن النفس البشرية ، يُظهرها الفرد في شكل تعبير كلامي عند تفاعله مع الآخرين ، أو تظهر في مظهره الخارجي أو البراهين والحجج التي يبرر بها مواقفه .

فبذلك تعد المشتقات مود لغو كلامي لا يعبر عن الحقيقة بقدر ما يبرر السلوك ، والحقيقة أن تلك المشتقات تخفي وراءها رواسب هي العلل أو الأسباب الحقيقية التي أدت إلى الفعل الذي قام به الفرد أو الجماعة إلا أن المـُجاهرة بتلك العلة أو ذلك السبب قد يؤدي إلى فقدان الفاعلية للفعل المراد القيام به ، أو يكون من شأنه عرقلة الجهد المبذول للوصول إلى الغاية فتأتي المـُشتقات كمنقذ لذلك الفعل ، وتعطي التفسير الذي يبرر ذلك ، على الرغم من أن التفسيرات قد تتغير من ثقافة لأخرى ، على سبيل المثال فإن السرقة سلوك غير مقبول عند مختلف الثقافات ، العربية ، الغربية ، الصينية ، وغيرها ، إلا أن لكل منها تبريره أو تفسيره الذي يختلف عن الآخر ، أي أن الحالة الحقيقية تتمثل في وجود عدد من المشتقات التي ترتبط براسب واحد له فاعليته فيها كلها ، مع تأكيد نتيجة واحدة توافق كل هذه المشتقات أو التفسيرات.

- غيتانو موسكا *Mosca* : (1858 - 1941)

يذهب "بوتومور" إلى أن "موسكا" كان أول من أقام تمييزاً منهجياً بين (الصفوة) والجماهير ، رغم أنه قد استعان بمصطلحات أخرى ، وأنه أول من حاول إقامة علم سياسة جديد على هذا الأساس ، وقد وردت أفكار موسكا هذه في كتابه (الطبقة الحاكمة) *The Ruling Class* ، الذي نشر سنة 1896 ثم تُرجم إلى الإنجليزية سنة 1939 ، وقد تركزت تلك الأفكار على تنفيذ ما جاءت به الماركسية في أن العامل الاقتصادي هو المحرك الأساسي للتاريخ ، وأن العامل الطبقي سيزول عندما تسود الشيوعية الأولى ، ويشير موسكا إلى أن (الصفوة) لاتصل إلى وضعها نتيجة لسيادة اقتصادية ، وأن التغير السياسي والاجتماعي كان نتيجة لتغير ودوران الصفوة ، بمعنى أنه لم يكن نتيجة عوامل اقتصادية) .

وموسكا مثله في ذلك مثل باريتو ، انطلق من التصور الأساسي لفكرة تقسيم المجتمع إلى طبقتين أساسيتين ، تمثل إحداها الأقلية ، وتمثل الأخرى الأكثرية ، وقد عبر عن ذلك بقوله : (بين الحقائق و الميول الدائمة التي يمكن أن توجد في كل بنية أساسية ، ظاهرة بيّنة إلى درجة تبدو فيها بوضوح لأقل العيون تدقيقاً ، ففي كل المجتمعات . من تلك المجتمعات ضعيفة التطور والتي لم تكد تبلغ فجر المدنيات ، إلى أكثر المجتمعات تقدماً وقوة . تنشأ طبقتان من الناس ، طبقة حاكمة وطبقة محكومة ، والطبقة الحاكمة هي دائماً أقل هاتين الطبقتين عدداً ، وهي التي تقوم بكل الوظائف السياسية ، وتحتكر السلطة ، كما تتمتع بالفوائد التي تكون حصيلة لتلك السلطة ، بينما الثانية ، وهي الأكثر عدداً ، في حال تسيرها فيه الطبقة الأولى وتدير شؤونها بطريقة يقال فيها أنا أنها شرعية بصورة أو بأخرى ، كما يقال فيها في آن آخر أنها "كيفية" عنيفة بشكل أو بآخر) .

إذن فإن المجتمع حسب رأي موسكا ينقسم إلى قسمين ، يمثل الأول الطبقة الحاكمة أو (الصفوة الحاكمة) والتي تكون في العادة أقلية ، ويمثل الثاني الطبقة المحكومة وتشمل الأكثرية ، بذلك فإن الصفوة تتحدد طبيعتها من حيث أنها تمتلك مقاليد السلطة، في حين أن الطبقة المحكومة بالمقابل لا تمتلك شيئاً .

وإذا كانت الصفوة طبقة قليلة العدد ، فإنها ليست مجرد أقلية فحسب ، بل تنفرد أيضاً بمزايا وخصائص تمكنها من امتلاك السلطة واحتكار القوة السياسية في المجتمع ، ما يجعلها بالتالي تشكل الفئة الحاكمة ، وذلك على عكس الأكثرية التي تشكل الفئة المحكومة ، ويرجع مصدر قوة الصفوة في نظر موسكا إلى قدراتها التنظيمية ، وامكاناتها المتميزة على صعيد تنظيم نفسها بصورة كاملة وشاملة في مواجهة الأغلبية (الجماهير) التي تفتقد تلك الامكانات ، وبذلك يفسر موسكا حكم الأقلية للأغلبية فيقول : (سيطرة أقلية منظمة تطيع دافعاً واحداً ، على أكثرية غير منظمة ، أمر حتمي ، فقوة أية أقلية لا تقاوم في حال توجيهها إلى فرد واحد في الأكثرية ، يقف وحيداً أمام (كلية) الأقلية المنظمة ، وفي الوقت نفسه نجد أن الأقلية منظمة لمجرد كونها أقلية ، وكذلك لأن الأقلية عادة تتألف من أفراد متفوقين) .

بذلك نجد أن موسكا يعتقد بأن قوة الطبقة الحاكمة تكمن في كونها تشكل (أقلية منظمة) في مواجهة (أغلبية غير منظمة) ، كما أنه يذهب إلى أن الجماهير الشعبية ، رغم ما يكتنفها من ضعف راجع إلى عوامل مختلفة ، فإنها قادرة على ممارسة الضغوط على الحكام ، نتيجة لاستيائها من بعض السياسات التي يتخذها أولئك الحكام ، وفي هذه الحالة ، تبرز طبقة أخرى حاكمة من بين الجماهير تتبنى سياسة جديدة تتلاءم بشكل أكبر مع مصالح الشعب ، إضافة إلى ذلك نجد أن موسكا يولي اهتماماً ملحوظاً بعملية اجتماعية أخرى هي ظهور (أقلية موجهة داخل الطبقات الدنيا ، تتخذ موقفاً معادياً من الطبقة الحاكمة) ، فتصبح بذلك هذه الأقلية الموجهة ، كياناً آخر داخل الكيان السياسي ، يكون له تأثيراً كبيراً على جماهير الشعب يفوق التأثير الذي تمارسه الطبقة الحاكمة الشرعية .

- روبرت ميشيلز : *R.Michels*

تعد تحليلات ميشيلز أساساً ملائماً لقضية مهمة أثارها أصحاب نظرية الصفوة ، والمتمثلة في حاجة التنظيم الاجتماعي المستمرة إلى الصفوة ، حيث أجرى دراسة شاملة للنزعات الأوليغارشية (حكم الأقلية) في الأحزاب السياسية ، معتمداً على تحليل تاريخ الحزب الألماني الديمقراطي الاشتراكي ، الذي يعتبر حزب الطبقة العاملة وملتزم بالديمقراطية ، وقد انتهى ميشيلز من دراسته هذه إلى أن هناك ثلاثة أسباب رئيسة أدت إلى ظهور النزعة الأوليغارشية داخل المنظمات ، أولها هو خصائص التنظيم ذاته ، والثاني هو سمات القادة ، أما الثالث فهو سمات الجماهير ، فالمنظمات المعقدة تحتاج إلى قادة ذوي خبرة ومهارة فنية عالية ، حيث أن المنظمة تدخل عادة في صراعات مع منظمات وجماعات أخرى ، ومن ثم فهي تحتاج إلى قرارات سريعة ورشيقة ، وذلك يتطلب هيئة إدارية وقيادة ذات مستوى رفيع من الخبرة والتدريب ، ولذلك يحصل هؤلاء القادة على جزاءات ومكافآت عالية من حيث الدخل والمرتب ، وكذلك ظروف العمل ، ومع ذلك يتطلعون دائماً إلى المزيد ، ما يجعلهم يتبنون اتجاهات محافظة⁽¹⁾، وقد توصلت دراسة

(1) د. محمد علي محمد ، أصول الاجتماع السياسي ، مصدر سابق ، ص 248 .

ميشيلز عن الحزب الألماني ، بأنه قد لوحظ من الناحية التنظيمية أن قيادة الحزب ، بمرور الوقت ، قد انفصلت واستقلت عن القاعدة ، وأصبحت تعمل لصالحها الخاص بوصفها أقلية ، ويطلق ميشيلز على العملية التي بموجبها تفقد أكثر المنظمات ديمقراطية نقاءها وتنتكر لمثالياتها ، وتصبح منظمات تحكمها الأقلية ، اسم " القانون الحديدي للأوليغارشية " .

لقد عالج ميشيلز موضوع الصفوة معالجة مختلفة ، تتعارض مع ما قدمه كارل ماركس من تفسير للتاريخ ، وقد جاءت أفكاره هذه في مؤلفه (الأحزاب السياسية) *Political Parties* ، وعلى الرغم من أن ميشيلز قد أقر أهمية العوامل الاقتصادية في إحداث التغير الاجتماعي ، متفقاً في ذلك مع ماركس ، إلا أنه أوضح بأن هناك عوامل وقوى عديدة تحدد مصير الديمقراطية والاشتراكية ، تتمثل في طبيعة الإنسان ونوعية الصراع السياسي ، فضلاً عن شكل التنظيم ، إضافة إلى أن ميشيلز يعتقد أن ماركس لم ينتبه بقدر كاف إلى ظاهرة هامة ، وهي إن الديمقراطية تؤدي إلى ما يسمى حكم الأقلية (الأوليغارشية) ، حيث أن الأحزاب السياسية ، مهما كانت توجهاتها ومسمياتها ، فإنه يوجد بها اتجاهات أوليغارشية ، تنتشر في أي تنظيم سياسي يسعى لتحقيق أهداف محددة ، أي أن هناك صفوات معينة تميل إلى التحكم في التنظيمات السياسية ، مبتعدة عن تحقيق الديمقراطية الحقيقية⁽¹⁾.

كما ذهب ميشيلز في إطار محاولته تفسير ظهور الاتجاهات الأوليغارشية ، أي بروز الصفوات في النظم السياسية ، إلى أن ثمة ميولاً إنسانية فطرية تدفع الإنسان لنقل ممتلكاته إلى ورثته الشرعيين ، كما تدفعه أيضاً إلى نقل السلطة السياسية التي يتمتع بها إلى أبنائه من بعده ، وعلى الرغم من أن ميشيلز قد عزا هذه الظاهرة إلى غرائز كامنة في الجنس البشري ، إلا أنه قد أكد أن هذه الغرائز تنمو وتتدعم من خلال النظام الاقتصادي المستند إلى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.

(2) د. السيد الحسيني ، مصدر سابق ، ص 165 .

ورغم أن "باريتو" ، و "موسكا" ، و "ميشيلز" ، هم رواد نظرية الصفوة ، فقد انشغل بهذا الموضوع العديد من الباحثين ، أمثال "رايت ميلز" ، و "لازويل" ، و "منهايم" ، و "بوتومور" وغيرهم ، وقد أدى تعدد المتناولين لهذا الموضوع بالدراسة والبحث ، إلى تعدد التعريفات الخاصة بالصفوة ، نتج عن ذلك تعدد المفاهيم بشكل يجعل حدودها غير واضحة ، لهذا يميل بعض الباحثين إلى أن تعريف الصفوة يعتمد على أربعة أبعاد رئيسية وهي :

- 1- وجود مجموعة سائدة تملك من الخصائص والصفات ما يميزها عن الآخرين .
 - 2- أن الصفوة ظاهرة جماعية فلا يطلق الاصطلاح على شخص واحد وإنما على مجموعة من الأشخاص .
 - 3- أن هذه المجموعة تملك من القدرات ما يمكنها من صنع القرار والتأثير على الآخرين.
 - 4- أن الصفوة مفهوم نسبي ، ويقصد بذلك أنها تمارس تأثيرها ونفوذها في مجال معين تتمتع فيه بميزة نسبية وبقدرة أكبر على التأثير والنفوذ .
- مناهج التحليل في دراسة الصفوة⁽¹⁾:

1- منهج المكانة أو الموقع : ويركز هذا المنهج على شاغلي الوظائف والمواقع العليا في المؤسسات الرسمية ، والفرضية الرئيسية التي يستند إليها هذا المنهج ، هي أن أولئك الذين يسيطرون على المناصب السلطوية ، هم الذين يتخذون القرارات الهامة ، بينما من لا يشغلون مناصب هامة لا يستطيعون اتخاذ قرارات مؤثرة ، وقد استخدم "رايت ميلز" هذا المنهج في دراسته للنخبة الأمريكية ، وخلص إلى أنه إذا تجرد المائة شخص الأكثر تأثيراً في الولايات المتحدة من المناصب التي يشغلونها في المؤسسات الرسمية ، ومن علاقتهم بهذه المؤسسات ، فإنهم سيتجردون في الوقت نفسه من مظاهر قوتهم وتأثيرهم ، أما ما يعيب هذا المنهج فهو عدم وجود اتفاق حول تحديد المناصب الهامة ، حيث ذهب بعضهم إلى أن المناصب الهامة يقصد بها السيطرة على القطاعات والوظائف الاقتصادية الرئيسية ، في حين ذهب البعض إلى التركيز على المناصب الإدارية أو السياسية وغيرها .

(1) عامر رشيد مبيض ، الموسوعة ، مصدر سابق ، ص 1274 .

2- منهج السمعة : يعتمد هذا المنهج على تحديد الشخصيات المؤثرة في المجتمع ، والتي تلعب دوراً هاماً وتستطيع أن تحقق إنجازات للمجتمع ، كما يعتمد هذا المنهج على مجموعات من الأفراد ذوي خلفيات سياسية يتم اختيارهم بطريقة معينة ، بحيث تكون كل مجموعة أشبه بالمحلفين ، ويطلب منهم تحديد أسماء الشخصيات السياسية الأكثر تأثيراً في المجتمع محل الدراسة ، والشخصيات التي تتشابه في إجابات المجموعات المختلفة تكون هي النخبة السياسية ، وتوجه بعض الانتقادات إلى هذا الأسلوب ، وذلك على أساس أنه أسلوب غير موضوعي في تحديد أفراد النخبة ، كما أنه يقيس ويحدد السمعة ولا يحدد بالضرورة الذين يمارسون السلطة فعلاً .

3- منهج صنع القرار : ويعرف هذا المنهج أيضاً بمنهج تحليل الحدث أو منهج المشاركة ، ويستند إلى فرضية أساسية ، خلاصتها أن أولئك الذين يشاركون فعلاً في عملية صنع القرار يكونون الصفوة ، لأنهم أظهروا تأثيرهم ونفوذهم من الناحية الفعلية ، ووفقاً لهذا المنهج ، فإن الخطوة الأولى الهامة هي تحديد القرارات التي تعتبر حيوية للمجتمع ككل ، أما الخطوة الثانية فهي التعرف على أولئك المشاركين النشطين في صنع هذه القرارات ، ووفقاً لهذا المنهج فإن الصفوة يمثلها أولئك الذين يشكلون القرار من الناحية الفعلية أو يشتركون في صنعه .

4- المنهج السلوكي لقد وجد التحليل السلوكي في علم السياسة اهتماماً لموضوع الصفوة ويمكن تفسير ذلك بأن السلوك السياسي للنخبة يشكل المكون الأول لعملية الحكم ، ولذلك فإن التركيز على دراسة السلوك للصفوة يؤدي إلى إبراز وتوضيح العديد من الجوانب الهامة في النظم السياسية ، وخاصة درجة الاستقرار السياسي ، حيث أن سلوك الصفوة السياسية يطرح آثاره على درجة الاستقرار والشرعية التي يتمتع بها النظام السياسي ، ولعل من العوامل الهامة التي تفسر أيضاً اهتمام المنهج السلوكي بالصفوة ، أن أغلب المعلومات عنها متوافرة ويسهل الحصول عليها ، قد كتب الكثير عن القادة والزعماء ، بينما لا تتوفر معلومات عن الجماعات والطبقات الاجتماعية العامة .

وحيث أن أي منهج من هذه المناهج قد يعترضه قصور معين وتؤخذ عليه بعض المآخذ ، فإن الدراسات ، خاصة الحديثة منها ، تميل إلى المزج بين أكثر من منهج لغرض تغطية أوجه القصور وتفادي الانتقادات الموجهة إلى منهج محدد .

يؤكد أصحاب نظرية الصفوة على أن هناك فروقاً فردية من حيث القدرات موروثية ، وذلك ما يشكل أساس قيام الصفوات في الجماعات الاجتماعية ، وفي المجتمعات ، وتسيطر تلك الصفوات على القوة ، ويظهر اللاتماثل في الواقع الاجتماعي بأوضح صورة في علاقات القوة ، إذ يتمتعن بيده القوة بسيطرة ونفوذ كبيرين على سلوك المحكوم ، فما يعبر عنه بصفوة القوة عبر مراحل التاريخ المختلفة ، وفي العديد من المجتمعات قديمها وحديثها ، هي تلك الجماعة قليلة العدد التي تسيطر على مواقع السلطة ، وتحتكر عمليات صنع القرار ، وبما أن القرارات المؤثرة على المجتمع ككل هي في الغالب ذات طابع سياسي ، فقد أطلق علماء السياسة والاجتماع على صانعيها مصطلح الصفوة الحاكمة أو الصفوة السياسية .

إن الدراسات والأبحاث التي تتناول موضوع الصفوة ، إنما تهدف في المقام الأول إلى تحليل (بناء القوة) في المجتمع ، وتبيان ما إذا كانت القوة مملوكة بواسطة أقلية متماسكة وواعية بمصالحها كما يرى أصحاب نظرية الصفوة ، أم أنها تطور محتمل وعارض لمرحلة تاريخية معينة ، لأن نفوذ الصفوة وسيطرتها ، إنما يرجعان في الغالب إلى تماسكها ووعيتها وسرعة اتصالها وقدرتها على التفاهم وتنسيق المواقف ودقة التنظيم ، وقد يقول قائل أين سيطرة الأغلبية عن طريق الديمقراطية ؟ ، فنقول إن ظهور سيطرة الأغلبية بالوسائل الديمقراطية في المجتمعات الحديثة ما هو إلا مظهر خادع ، حيث تكون الأقلية (الصفوة) في موقع يسمح لها بالمناورة أثناء العمليات الانتخابية بما يتفق مع أهدافها ، وذلك بواسطة قهر (الناخبين) من خلال استخدام الدعاية الماهرة عن طريق وسائل الاتصال الحديثة لاختيار (المرشحين) ، حيث يقع الاختيار في نهاية الأمر على غالبية مرشحي الصفوة⁽¹⁾.

(1) د. إسماعيل علي سعد ، أصول علم الاجتماع السياسية ، مصدر سابق ، ص 53 .